مقعد شاغر

عبدالرحمن حسن سعد ❖

ـ لا أريد الذهاب.

ـ لماذا؟

ـ لأنني لا أقبل ما قلته.

ـ إذا لم تذهب وتستلمْ ذاك الشيك، فسأ...

ـ (مقاطعًا) سأذهب إلى البيت. أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ إذًا، أعتبرُ نفسي مفصولاً؟

ـ .....

ـ ولكني سأحضر بعد يومين، لآخذ ما تبقّى من حقوق.

تخرج من الشركة. تهيم. ما رأيك أن تذهب إلى مكانٍ تحبّ أن تجلس فيه حين تضيق بك الحال؟ لا تُهمهمْ هكذا. لا تُثاقل الخطى ولا تتركْها تجرّك خلفًا.

اجلسْ في هذا المقعد الإسمنتيّ، الذي جلستَ فيه مرارًا، تجترّ عنده همومك. ما رأيك أن تكتب قصةً أو خاطرة؟

مقعدك الوسيع يقابل ضفّة النهر الأخرى. خلفك تمامًا شارعُ النيل الذي يفصلك عن فندقٍ فاخرٍ كان ذات يوم مسرحًا لحديقة الحيوان، تمرحُ فيها أيّام العُطل والإجازات الصيفيّة. تتقافز مع القرود، تخشى فرسَ النهر، تتأفّف من الخنزير المتّسخ الذي قد يقذفك ببعضٍ من اتّساخه ومياهه الآسنة. تتذكّر أنّ والدتك كانت تنعتك بالخنزير حين تُصرُّ على عدم الاستحمام، فتهرعُ فزعًا إلى الحمام، وتمكث فيه أطول من المرات السابقات.

يمرّ موكبٌ من سيّارات رئاسيّة، تتقدّمها درّاجاتٌ بخاريّة مميّزة بصفيرها. تسير بسرعةٍ جنونيّة. تلتفتُ خلفك ولكنك لا ترى سوى مؤخّرات السيارات. تتذكّر أنك ذات مساءٍ اعتليتَ عربةَ الوفد المصريّ الزائر، عندما دعاك صديقك، وكانت تجري أمامكم دراجةٌ بخّاريّة رئاسيّة. قطعتْ بكم تلك السيّارة الجسرَ الذي يَربط أمّ درمان بالخرطوم في أقلّ من نصف دقيقة، ثم واصلتْ سيرها حتى مطعمٍ عظيمٍ. قلتَ لصديقك: «الآن فقط عرفتُ لماذا يتشبّث الحكّامُ بالسلطة.» ثم ضحكتما كثيرًا.

يمرّ أمامك رهطٌ من الأجانب، يحملون آلات تصوير متباينة الأحجام. تطلب إليك فتاةٌ أن تلتقط لهم صورة جماعيّة. تهمّ بالتقاط الصورة. يدٌ تُربّتُ على كتفك اليمنى. تلتفت. فتاة شقراء، مبتسمة تطلب في لطف أن تشارك في تلك الصورة. تُحدّقُ في وجهك فترة، كأنها تعرفك، ثم تتنبّه إلى وضعها فتسارع إلى الانضمام إلى المجموعة مبرقةً بسمتها تلك. تضبط آلة التصوير. تلتقط الصورة.

تقفُ الشقراءُ مطالبةً بأخذ صورة أخرى للمجموعة يكون خلفيّتَها، هذه المرةَ، الجسرُ المُعلّق، وتكون أنت وسط المجموعة. تتردّد، تندهش لطلبها، لكنك تُوافق. تُلتقط الصورة.

تَهُمّ بالجلوس، فتطلب مشاركتك المقعد. تقول لها إنّ المقعد شاغر. تجلس بجوارك. تفاجئك بسؤالها:

ـ هل عرفتني؟

ـ يبدو أنها المرة الأولى التي أقابلك فيها.

❖ ـ كاتب قصة من السودان.

ـ لم تكن ترتدي نظّارة، صحيح؟

ـ (مستغربًا) نعم، فقد نصحني الطبيب بارتدائها منذ أقلّ من شهر.

ـ هو القميص نفسه الذي كنت ترتديه، ولكنْ بدون رباط عنق، صحيح؟

ـ لا أذكر سيدتي. عمّ تتحدّثين؟

ـ تلك الصورة التي كانت منشورة بجوار قصتك التي نُشرتْ في...

ـ (مقاطعًا) مجلة **الكتّاب الأفارقة**. هل أنتِ سارا إدوارد؟

ـ (فرحةً ومبتسمة): نعم، وأنت السيّد أحمد... صحيح؟

لا تنتظر منك الإجابة بل تصيح: «سيّد مارك... سيّد مارك!»

يأتي شابّ في أواسط الثلاثين. تُعرّفني إليه قائلةً: «هذا السيّد أحمد الذي حدّثتكَ عنه وتمنّيتُ لقاءه.» يسلّم عليك بحرارة وتودُّد. تكمل سارا: «عندما جئنا في رحلتنا السياحيّة هذه، كنتُ أُمنّي نفسي بلقاءِ مَنْ راسلونا بقصصهم وأشعارهم. كان معك آخرون، أذكر منهم طه محمد ومحمود العلام وكاتبة ممتازة وبارعة، تُدعى نادية. هل تعرفهم؟

ـ نعم. ولكنْ للأسف لن تجدي واحدًا منهم الآن سواي.

ـ لماذا ؟

ـ طه محمد انتحر ذات صباح؛ لم يعد يحتمل. العلاّم هاجر إلى أمريكا، تاركًا أحزانَه خلفه. نادية تزوّجتْ ومُنعتْ من الكتابة؛ هي تكتب سرّاً ولا تنشر، فقد أصبحتْ ذات عائلة وربّة منزل لا تغادره إلا لمامًا.

ـ عجبي! كيف يحدث هذا الأمر؟

ـ صديقي طه هاتفني قبل انتحاره بدقائق. قال إنه يريد أن يذهب إلى مكانٍ لا قهر فيه ولا ذلّ. بعد ساعتين جاء نبأُ انتحاره برصاصة، مثل خليل حاوي. كان يحبّ شعرَه كثيرًا، وشخصيّته، ولم أكن أعلم حبّه لنهايته أيضًا. أتعرفين خليل حاوي؟

ـ أعلم كلّ الأدباء العرب الذين انتحروا من كتاب الشاعرة جُمانة حدّاد. كما أعلم أيضًا شاعركم عبد الرحيم أبو ذكرى.

ـ أما صديقي العلام، فقد فقدَ كل ما يملك، ولم يبق له غير قلمه وضميره المُتقِد، ففضّل الاستمساك بهما والهجرة بعيدًا. هو الآن في أمريكا.

ـ وماذا عنك؟

ـ أنا مازلت حيّاً.

ضحكنا. طلبنا من مارك أن يلتقط لنا صورة. ثم طلبتْ أن ألتقيها غدًا صباحًا في المكان الذي كتبتُ فيه أجمل القصص التي أرسلتها إلى تلك المجلة.

◆ ◆ ◆

تجلس الآن في المقعد الأسمنتيّ. تمدّ رجليك إلى أقصى مدًى. تتنفس بعمق، ثم ترفع رجليك أعلى المقعد. تضع مفكّرتك تحت رأسك وتشبك يديك على صدرك، واهبًا نفسك غفوةً عابرةً.

الخرطوم